وفي القسم الثاني ، من هذا الفصل ، يستعرض المؤلف خلفية الحركة الوطنية ، فيرى ، ان الحركة الوطنية السورية عبرت عن نفسها ، من خلال نهضة فكرية عاشتها سوريا، منذ أواسط القرن التاسع عشر ص ١٨، ففي عام ١٨٨٠ ، أخبر القنصل البريطاني ، في بيروت ، حكومته عن ظهور منشورات ثورية، كما وضع أول برنامج سياسي نادى باستقلال سوريا وبجعل اللغة العربية لغة رسمية ، ووقعت اضطرابات في القدس عام ١٨٨٢ - ١٨٨٤ ، وفي نفس العام تبدى تعاطف مكبوت مع ثورة المهدي في السودان ص ١٨ ، وتحت ضغط جمعية تركيا الفتاة ، قدم السلطان عبد الحميد الثاني المزيد من التنازلات وأعاد العمل بالدستور عام ١٩٠٨ ، واستمرت الحركة العربية الثورية بالنهوض ص ١٩ ، وأعدم جمال باشا على أثر ارتفاع المد الثوري ثلة من المواطنين ، وقد تدرجت الحركة الوطنية السورية في مطالبها ص ٢٢ ، وبعد خروج القوات المصرية من سوريا عام ١٨٤٠ ، عاد النشاط الاستعماري الصهيوني ، في الوقت ذاته متوازيا مع الحركة الوطنية ، ومدعوما من بريطانيا المتلهفة للسيطرة على فلسطين وسوريا ص ٢٣ ، وتصاعد عدد اليهود من ٢٥٠ عام ١٤٨١ الى ما يقرب ٨٥ ألفا ما قبل نشوب الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ ، ويؤكد المؤلف على مقارنة جيفريز ، أحد المؤرخين الغربيين ، بين الحركة الصهيونية والحركة العربية في فلسطين ، فيبين أن الاولى نشأت خارج فلسطين ، في حين أن الثانية حركة وطنية أصيلة ص ٢٩ .

نلمس ، في هذا الفصل ، ان المؤلف قد وضع مقدمة نظرية بحتة ، ثم استعرض التاريخ المتسلسل لجذور الحركة الوطنية في فلسطين ، غير أن ضعف الربط المنطقي - الفكري يلاحظ بين المقدمة والعرض حيث لم يستطع الباحث تطبيق منهجه النظري بصورة واضحة على التطور التاريخي - الاجتماعي للحركة الوطنية، فهو يقول مثلا : ان البرجوازية العربية لم تجد المناخ الملائم للتطور ، مناخ الحفاظ على القيمة الزائدة ، في نفس الوقت الذي يصر فيه على ان البرجوازية العربية أصبح لها تطور فكري ناضج ، بينما قدم السلطان العثماني تنازلات لها ، وان كانت هذه التنازلات أخذت تحت ضغط جمعية تركيا الفتاة ، أي ليست عربية بحتة ، وللقارىء ان يستقرىء الوقائع والتاريخ ليجعلها تنطق بنفسها ، ونتفق مع المؤلف على النواحي التاريخية ، ولكن ندين ضعف أسلوبه في محاكمتها ، وهذا نقص ، كثير ما يعتري أبحاث الباحثين العرب .. النظرية من جهة ، والوقائع من جهة أخرى ، دون تقيدها بعملية الجدل الرابط ما بينها .

الفصل الثاني : فجر الحركة الوطنية : يؤرخ المؤلف ، لفترة امتداد جذور الحركة الوطنية في فلسطين ، معتمدا على مقدمته النظرية ، وانطلاقا من رؤية أولية ، فيصف بالضعف والسلبية الحركة الوطنية الفلسطينية ص ٣١ ، في مراحلها الاولى والتي امتدت من عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٢٩ ، واستمرت المرحلة الثانية من عام ١٩٣٠ - ١٩٣٩ وشغلت المرحلة الثالثة المدة من ١٩٤٠ - ١٩٤٩ ص ٣١ ، وقد انفرد كبار الملاك بقيادة المرحلة الاولى ، ولعب ضيق أفقهم وضحالة امكانياتهم الثورية ، وطبيعتهم الرجعية ، دورا رئيسيا في اتسام الحركة الوطنية بالضعف ، ومن العناصر الفاسدة التي أدخلتها هذه الفئة الحاكمة ، الى ذهنية الجماهير ، انها وجهتها نحو العداء العنصري الطائفي لليهود ، منحرفة بالجماهير عن عدوها الرئيسي المتمثل بالاستعمار البريطاني ص ٣١، على ان الانجليز هم الذين اشادوا بتأليف الجمعيات الاسلامية المسيحية ، بل ولعبوا دورا في انتقاء بعض اعضائها ص ٣٥ ، وهناك ما يشير الى أنه كان لفرنسا دور في تأسيس هذه الجمعيات ذات الطابع العنصري الديني ص ٣٦ ، اما المفيد الاكبر من هذه الجمعيات فكان كبار الملاك ، وعملوا على تحويلها الى مؤسسة اقتصادية تتبنى وتخترم مصالحهم الطبقية وأطماعهم ، وعلى سبيل المثال تصدت تلك الجمعيات لمهمة تنشيط تصدير الحمضيات ، علاوة على قبولها بتكليف سلطات الاحتلال البريطاني لها لتوزيع القمح والاسمنت على الاهالي ص ٣٨ ، ولم يكن لها مهام عملية نضالية سوى ارسال البرقيات وتقديم العرائض ص ٣٩ ، بينما الجماهير